خطبة جمعة في شرح حديث سقيا الكلب

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له ولي الصالحين، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله –صلى الله عليه وسلم –، أما بعد:

فقد روى الشيخان عن أبي هريرة –رضي الله عنه –أن رسول الله –صلى الله عليه وسلم –، قال: "بينما رجلٌ يمشي بطريق اشتد عليه العطش، فوجد بئرًا فنزل فيها فشرب، ثم خرج فإذا كلب يلهث (أي: أخرج لسانه) يأكل الثرى (أي: يأكل التراب المبلول بالماء) من العطش، فقال الرجل: "لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان قد بلغ مني" فنزل البئر، فملأ خفه ماء ثم أمسكه بفيه حتى رقِي (أي: صعد)، فسقى الكلب، فشكر الله له، فغفر له" قالوا: "يا رسول الله، إن لنا في البهائم أجرًا؟" فقال: "في كل كبد رطبة أجر". متفق عليه.

وفي رواية للبخاري: "فشكر الله له، فغفر له، فأدخله الجنة". وفي رواية لهما: "بينما كلب يطيف بركية (أي: يدور حول بئرٍ) قد كاد يقتله العطش إذ رأته بغيٌّ من بغايا بني إسرائيل، فنزعت موقها (أي: خُفّها) فاستقت له به فسقته فغُفر لها".

هذا الحديث حديثٌ عظيم، يقصّ فيه النبيّ –صلى الله عليه وسلم –علينا قصةَ رجلٍ من الأمم السابقة كان يمشي في طريقٍ فاشتد عليه العطش، فبحث عن ماء ليشربه، فوجد بئرًا، فنزل البئر، وشرب من الماء، فلما خرج من البئر رأى كلبًا اشتد عليه العطش، فسقاه، فشكر الله له فغفر الله له، والشكر هنا إما أنه بمعنى القبول، فيكون المعنى أن الله تعالى قبل عمله، وأثابه بالجنة عليه، أو أن الشكر هنا بمعنى الإثابة، فيكون المعنى أن الله تعالى أثابه، وجزاه الجنة.

وبعد أن ساق النبيّ –صلى الله عليه وسلم –القصّة سأل الصحابةُ النبيَّ –صلى الله عليه وسلم –هل لهم أجرٌ في إطعام هذه الحيوانات، وسقياها؟ فأخبرهم أن لهم أجرًا في كل حيوان له كبد رطبة، بمعنى أن لهم أجرًا في كل حيوان حيّ. والكبد الرطبة تعني حياة الحيوان.

في هذا الحديث دليلٌ على أن شريعة الإسلام اشتملت على الكثير من المحاسن، ومن محاسنها الكثيرة أنها تأمر بالخير بجميع أنواعه، ومع جميع الخلائق، ولاسيّما إذا كان الخير يتعدّى نفعه إلى الآخرين كالرفق بالضعفاء، ورحمتهم، وسدّ حاجتهم. فشريعة الإسلام لا تأمر إلا بخير، تأمر بإحياء النفوس، وإسعادها، وسدّ حاجتها، وإزالة الضرر عنها.

وفي الحديث فوائدُ مهمةٌ سنستعين بالله في استعراض بعضها.

١ . فمن هذه الفوائد: فضلُ الرفقِ بالحيوان، ورحمتِه، والإحسانِ إليه، حتى وإن لم يكنِ الحيوانُ مما تملكه، فأنت مأجورٌ على الإحسان إلى الحيوان سواء كان هذا الحيوان لك، أو لغيرك، أو ليس لأحد. وفي الحديث أن الرفق بالحيوان مما اتفقت عليه الشرائع السابقة واللاحقة.

وقد حثّت شريعة الإسلام على الرفق بالحيوان في كثير من الأحاديث:

أ . فحثت على إحسان القِتلة عمومًا، وحثّت على الإحسان بالذبيحة، وحدّ الشفرة لها، وإراحتها أثناء الذبح.

ب . وأمرت الشريعة بإطعام الحيوان، وفي الحديث أنه دخلت النارَ امرأةٌ في هرة، بسبب أنها حبستها عن طعامها.

ج . كما أن الشريعة نهت عن إخافة الطير، وترويعه، ونهت عن نزع صغار العصافير من أمهم، ونهت عن اتّخاذ الطير غرضًا.

وكثيرٌ من الأولاد يرمي الكلاب والقطط بالأحجار، وبعنف شديد، وربما يلقيها من مكان مرتفع، وربما يرمي الألعاب النارية على وجهها، وهذا كلّه حرام فاتقوا الله أيها الشباب.

والشريعة الإسلامية هي التي أمرت بالرفق بالحيوان بنوعٍ من التوازن، والاعتدال، بنوع من الرفق المعقول، أما تعامل الكفار مع الحيوان فليس من باب الرفق، لأنه تجاوز حدود الرفق بالحيوان إلى تفاهاتٍ لا حاجة لها، وإلى مظاهر كاذبة، وإلى تعلق منحطّ يدل على فراغ نفسي، وفراغ عقلي، وفراغ عاطفي.

فالكافر قد يشترى للكلب أجود أنواع الأطعمة التي صُنعت للبشر، ويصنع له بيتًا من الكوخ من أحسن البيوت، وقد يضع له فيه مكيّفًا يكيف له الهواء، وكثيرًا ما يدخل الكلاب والقطط إلى البيت فتجلس على الكراسي، وعلى موائد الطعام، وتجلس في أحضان أصحاب البيت، وتنتقل معهم إلى السرائر لتنام معهم على الفرُش، وبعض الكفار قد يوصي ببعض الثروات لهذه الحيوانات وقد حصل ذلك، إلى غير ذلك من العبث، والتفاهات، فهذا ليس من الرفق، وإنما هو من التفاهات، فكيف إذا عرفنا أن بعضهم يعتني بكلابه، وقططه، بينما يضع والديه في دار العجزة، مجتمعات تعتني بالكلاب وفيها مئات المشردين من الذكور، والإناث، والصغار، والكبار الذين لا مأوى لهم.

فكيف إذا عرفنا أن هناك من الأوروبيين من يقلّد الكلاب في كل شيء، ويريد أن يعيش حياة الكلاب، وهذا كله ليس له إلا تفسير واحد وهو: "أن الطير على أشكالها تقع".

٢ ـ ويُشترط في الحيوان الذي نرفق به، ونُحسن إليه أن يكون من الحيوانات التي لم نؤمر بقتلها، أما الحيوانات التي أمرنا بقتلها فينبغي قتلها، كالفواسق الخمس وهي الحية، والعقرب، والفأر، والحدأة، والغراب الأبقع، ونحوها من الحشرات الضارة، فهذه لا تطعم، ولا تسقى لأنها ضارة.

٣ ـ ومن فوائد الحديث: إذا كان الرفق بالحيوان، وسدّ حاجته من الأعمال الصالحة، فكيف بالرفق بالإنسان، وسد حاجته، لأن نوع الإنسان أفضل من نوع الحيوان، كما قال تعالى: "ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر، ورزقناهم من الطيبات، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلًا".

والإنسان إذا أصابه الجوع، واحتاج إلى الطعام وكان طعام الحيوان مما يصلح له فهو أولى به من الحيوان.

٤ ـ ومن فوائد الحديث أن الله تعالى يغفر الذنوب ببعض الحسنات وإن لم يستغفر العبد من ذنوبه، وهذا معتقد أهل السنة والجماعة، وقد دلّ على ذلك الكتاب والسنة، قال تعالى: "إن الحسنات يذهبن السيئات"، وفي الحديث أن النبيّ –صلى الله عليه وسلم– قال: "لعل الله اطلع على أهل بدر فقال: "اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم" رواه الشيخان، وغفر الله لرجل وامرأة لأنهما سقيا كلب، والحديث رواه الشيخان، ولما جهّز عثمان بن عفّان جيش العسرة قال النبيّ –صلى الله عليه وسلم –: "ما ضرّ عثمان ما فعل بعد اليوم" رواه أحمد بسند حسن.

فهذا كله رد على الخوارج الذين يرون أن الذنوب لا تغفر إلا بتوبة، وأهل السنة يرون أن الذنوب يغفرها الله بأسباب كثيرة، فقد تغفر بتوبة، أو حسنات ماحية، أو مصائب مكفرة، أو شفاعة مقبولة، أو دعوة أخ لأخيه – ومنها شفاعة الناس للميت إذا صلوا عليه صلاة الميت –، ومنها غير ذلك، وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية أن الذنوب تغفر بقرابة العشرة أسباب.

٥ . وفي الحديث إشارة إلى أثر الإخلاص على الأعمال الصالحة، لأن هذا الرجل الذي سقى الكلب كان مخلصًا لأنه كان بعيدًا عن أنظار الناس، ولا يراه أحد حال سقيه، وهذا يدلّ على كمال رحمته، وكمال إخلاصه. فسقيا الكلب، والإخلاص في هذا النوع من العمل هو الذي استوجب له كثرة الأجور بعد فضل الله تعالى.

٦ . ومن فوائد الحديث العمل بالقرائن، والقرائن هي العلامات التي تصاحب الشيء وتدل على المقصود، فالرجل الساقي عرف أن الكلب قد اشتد به العطش، وقد عرف ذلك من قرينة أكل التراب المبلول، فسقاه الرجل فغفر الله له.

وينبغي للمسلم أن يكون فطنًا للفقراء، فكثيرٌ من الفقراء لا يتكلمون، فكما أن الكلب لا يقدر على الشكوى لأنه لا يقدر على الكلام، فهناك من الفقراء من تمنعه عزّة النفس من الشكوى لأحد، فهؤلاء ينبغي التفطّن لهم، والنظر في القرائن التي تحتفّ بهم، فإذا عرفت أن الرجل بدون عمل، وبدون دخل شهري ثابت، أو أنه صار يعجز عن شراء ما كان يشتريه دائمًا، أو نحو هذه القرائن فاعلم أنه فقير يحتاج إلى من يتفطّن له، ويقضي حاجته.

٧ . ومن فوائد الحديث: الحثّ على فعل الخير وإن كان قليلًا في أنظار بعض الناس، فالعبد لا يدري فيم تكون السعادة، وبأي عمل يدخل الجنة.

٨ . ومن فوائد الحديث: بيان كرم الله الواسع، وفضله العظيم، وكيف أن كرمه يقتضي أن يعطي العطاء الكثير على أعمالٍ قليلةٍ، وجهودٍ يسيرةٍ، يعود نفعها على الخلائق ولا يعود نفعها على الله تعالى.

٩ . وفي الحديث أن سقيا الماء من أفضل الصدقات، فسقيا الماء للكبير، والصغير، والمريض، والعاجز، والضيف، والزائر، فيه أجرٌ كبير عند الله تعالى بحسب حاجة الظامئ، وانتفاعه بالسقيا، سواءً كان على سبيل كرم الضيافة، أو على سبيل خدمة الآخرين، أو على سبيل آخر.

فإذا كان الماء سبيلًا يجري لصاحبه بالأجر المستمر فهو أفضل، وإذا كان يستحب سقيا كلب في أرض بعيدة، فيستحب سقيا الماء في المجتمع الذي يكتظّ بالناس، فيستحب سقيا الماء في المساجد، وفي المدارس، وفي المستشفيات، وفي المطارات وفي الطرقات، وفي غير ذلك.

١٠ . ومن فوائد الحديث استشعار ما يعانيه المحتاجون، فإن الرجل قال: "لقد بلغ العطش بهذا الكلب كما بلغ مني". فاستشعر ما يعانيه الكلب.

١١ . ومن فوائد الحديث: أن من أحسن إلى الخلق –من الناس، وغيرهم –أحسن الله إليه كما يحسن هو إلى الخلق، فالله تعالى يعاملك بما تعامل به الخلائق، ويجازيك بما تفعله مه الخلائق.

١٢ . ومن فوائد الحديث أن من طرق الخير نفعَ الخلق، ونفعُ الخلق له طرق كثيرة، منها إطعامُ جائعٍ، وسقيا ظامئٍ، وتعليمُ جاهلٍ، وقضاءُ حاجةِ محتاجٍ، وتفريجُ كربِ مكروبٍ، ونصرةُ مظلومٍ، وتسديد دين عن الفقير، وعفوٍ عن حقٍّ، وحمل متاع الضعيف، وخدمة الأخوة، والوقوف معهم، ونحو ذلك.

١٣ . وفيه حرص الصحابة على التعلم، وحرصهم على العمل بما تعلموه من العلم، ولذلك سألوا عن إطعام الحيوان، وهل لهم في ذلك أجر، فأخبر النبيّ –صلى الله عليه وسلم –عن الميزان في ذلك، وأن لهم الأجر في إطعام وسقيا كلّ ذي كبد رطبة.

نسأل الله تعالى أن يصلح أحوال المسلمين، وأن يردهم إلى دينهم، وأن يحفظ بلاد المسلمين من كل سوء ومكروه.

أقول ما تسمعون، وأستغفر الله لي ولكم

الخطبة الثانية

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له ولي الصالحين، وأشهد أن نبيّنا محمدًا عبده ورسوله –صلى الله عليه وسلم –، أما بعد:

ففي الحديث الرفق بالحيوان، ولقد حثّت شريعة الإسلام على الرفق بالحيوان قبل أن تظهر في أوروبا وأمريكا جمعيات الرفق بالحيوان.

ولا أنسى أن أقول: إن المجتمعات الأجنبية تعتني بالحيوانات، وتنشئ لها جمعيات الرفق بالحيوانات، بينما نجد أن هذه المجتمعات الأجنبية: تقتل الشعوب، وتتحكّم في طعامها، وقد تميتها جوعًا، كما نجدها تنهب ثرواتها، وتفسد في مجتمعاتها، وتتدخل في شئونها، وتحرّش بين الحكومات، وتموّن المتمرّدين، وتؤيّدهم ماديًّا، وسياسيًّا، وعسكريًّا.

كم قتلت أوروبا من الآسيويين، في آسيا، وكم قتلت من الأفارقة في أفريقيا، وكم قتلت أوروبا من الهنود الحمر في أمريكا الشمالية، وكم قتلت أوروبا من البشر في أمريكا الجنوبية، قسمت الدول الأوروبية فيما بينها غنائم الدول من كل القارّات، وكل دولة أخذت تنهب جهةً من الجهات، تقتل البشر، وتنهب الثروات، وتصدرها إلى بلادها، هذا هو تاريخ أوروبا المخزي.

فتح المسلمون مشارق الأرض ومغاربها لإخراج الناس من ظلمات الوثنية إلى نور الإسلام، أما الدول الأجنبية فقد احتلت الدول الضعيفة بالحديد والنار ظلمًا، فقتلت الرجال، وأرسلت بعضهم إلى معسكراتها كنوع من العبيد، ونهبت الثروات، وصدّرتها إلى بلادها حتى صارت الدول الأجنبية في مصافّ الدول الاقتصادية العظمى، وذلك بما نهبته من خيرات الشعوب، وتتحكم بمواقعها الهامة.

واليوم تسعى الدول الأجنبية إلى قتل المليارات من البشر باسم المليار الذهبي، يريدون أن يقتلوا المليارات، والذي يستحق أن يعيش في نظرهم هو مليارٌ واحد فقط، والبقية لا يستحقون الحياة ولو كانوا مليارات، كأنهم هم الذين يرزقون البشر، كأنهم يقولون: "نحن لا نقدر إلا على رزق مليار فقط، وأما سائر المليارات فلا نقدر على رزقهم". سبحان الله، وهذا –والله –من العجائب، فالله تعالى هو الذي يرزق الخلائق، يقول تعالى: "وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها"، ويقول تعالى: "ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون * إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين". ويقول: "إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقًا فابتغوا عند الله الرزق".

نسأل الله تعالى أن يصلح أحوال المسلمين